

حكاية الصعلوك الأول

بقلم : عبد الحميد عبد المقصود

رسوم : إسماعيل دياب

إشراف : حمدي مصطفى



الطبعة
المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

ت : ٥١٠٤٥٥ - ٧٨٢٥٥٥ - ٧٨٢١١٧
فاكس : ٢٤٧٥٥٠٩

دَقَّتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ الْأَرْضَ بِقَدَمَيْهَا فِي غَضَبٍ ، فَظَهَرَ فِي الْحَالِ
سَبْعَةٌ مِنَ الْعَبِيدِ الْأَقْوِيَاءِ ، بِيَدِ كُلِّ مِنْهُمْ سَيْفٌ مُسَلُولٌ ، وَأَحَاطُوا
بِالْخَلِيفَةِ (هَارُونَ الرَّشِيدِ) وَالْآخَرِينَ لِيَقْتُلُوهُمْ .
فَقَالَتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ :

- اَتْرَكُوهُمْ ، حَتَّى أَسْأَلَهُمْ عَنْ حَالِهِمْ ، قَبْلَ أَنْ تَضْرِبُوا رِقَابَهُمْ ..
فَقَالَ الْحَمَالُ مُرْتَجِفًا :

- يَا سَيِّدَتِي ، لِمَ تَقْتُلِينَ بِيْذَنِي هَؤُلَاءِ الصَّعَالِيكِ ، وَهَؤُلَاءِ
التُّجَّارِ ، وَأَنَا مَا خَالَفْتُ لَكَ شَرْطًا ؟ !

فَزَالَ غَضَبُ صَاحِبَةِ الْبَيْتِ قَلِيلًا ، وَقَالَتْ :

- لَمْ يَبْقَ مِنْ أَعْمَارِكُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ، فَأَخْبِرُونِي أَوَّلًا بِخَبْرِكُمْ ، لِمَ
تَجَرَّأْتُمْ عَلَى دُخُولِ دَارِي ؟

فَقَالَ الْخَلِيفَةُ لَوْزِيرُهُ (جَعْفَرُ) هَامِسًا :

- وَيْلَكَ يَا جَعْفَرُ ، أَخْبِرْهَا مَنْ نَكُونُ ، وَإِلَّا قَتَلْنَا هَؤُلَاءِ الْوَحُوشَ
غَدْرًا ، وَدُونَ ذَنْبِ جَنِينَاهُ ..

فَقَالَ (جَعْفَرُ) هَامِسًا :

- تَمَالِكْ نَفْسَكَ يَا مَوْلَايَ ، حَتَّى نَعْرِفَ قِصَّةَ هَؤُلَاءِ السَّيِّدَاتِ

الْثَّلَاثِ ، وَسَبَبَ تَصَرُّفَاتِهِنَّ الْغَرِيبَةِ ..



وهنا أشارت صاحبة البيت إلى واحد من الصُعاليك الثلاثة قائلة :

- هل ولدت أعور بالعين الشمال هكذا ؟ !

فتقدم الصُعْلُوكُ الأولُ منها قائلاً :

- أبداً ياسيديتي ، ولكن جرت لي قصة غريبة ، وهي التي تسببت

في تلف عيني .. قصة لو كتبت بالإبر على مآقي البصر ، لكانت

عِبْرَةٌ لِمَنْ يَتَعَبَّرُ ..

فتأثرت صاحبة البيت من كلامه وقالت :

- كُلُّ واحدٍ منكم يحكى لى حكايته ، وسبب مجيئه إلى بيتي ،
ثم يملس بيده على رأسه ، وينصرف إلى حاله ..

فتقدم الحمال قائلًا فى عجل :

- لقد استأجرتنى أختك من السوق لحمل مشترياتها ، فلما
جئت هنا صعب على حالكن ، وعرضت عليك أن أبقى معكن
لخدمتكن ، ورعاية شؤونكن ، وأكون لكن بمثابة الأخ الناصح
المعين ، ولم أخل بشرطى ، حتى جاء هؤلاء الصعاليك وأولئك
التجار ، فثار غضبك بسبب فضولهم ، وأنا لاذنب لى فيما
حدث ..

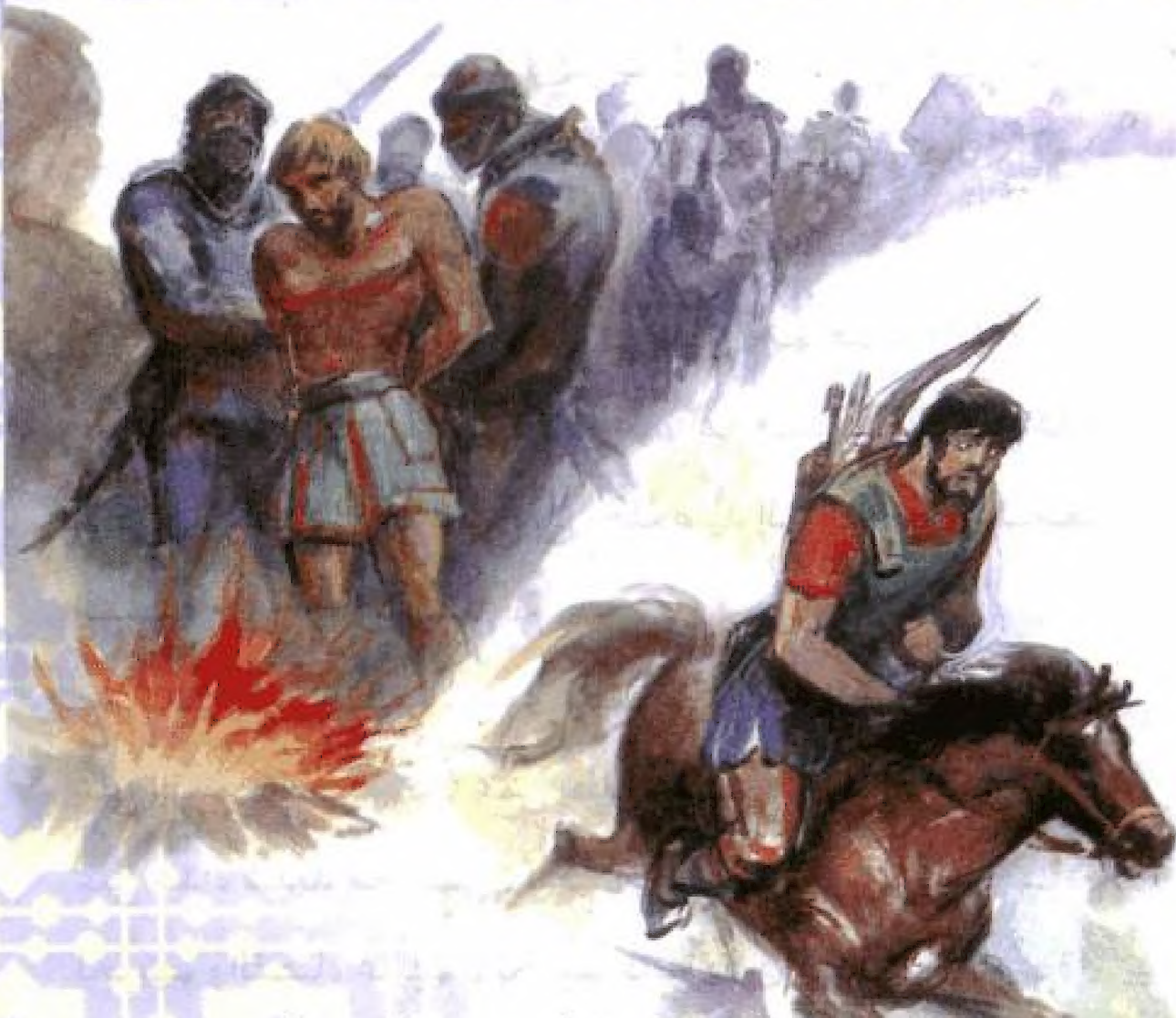
فقالت صاحبة البيت :

- ملس على رأسك ، واذهب إلى حالك ، فلم يعد لنا حاجة إلى
وجودك معنا ..

فقال الحمال :

- لا أذهب حتى أسمع قصص هؤلاء الرفاق ، كما استمعوا إلى

قصتى ..



وهنا تقدم الصعلوك الأول ، ليحكى حكايته قائلاً :
- إن سبب خلق ذقني وفقد عيني الشمال له قصة طويلة وهانذا
أحكىها لكم ..

لقد كان أبي ملكاً على مدينة كبيرة من مدن الروم ، وكان عمي
ملكاً على مدينة أخرى ..

وقد ولدتني أمي في نفس اليوم الذي ولدت فيه زوجة عمي ابناً ..

وقد مضت سنوات كثيرة ، كبرت أنا وابن عمي خلالها ، حتى
صرنا شابين ، ونشأنا مثل الأخوين المتحابين ، وكان كل منا
يزور الآخر في مملكة أبيه ..

وسكت الصعلوك الأول متنهدا في ضيق ، ثم أضاف قائلاً :
- وذات يوم كنت في زيارة لابن عمي في قصره ، فأكرمني غاية
الإكرام ، وألح علي أن نخرج في رحلة صيد إلى الصحراء الشاسعة
الممتدة خارج حدود المملكة ..

وكانت هذه الصحراء مأوى للصُوص والطُرق والخارجين
على القانون ، الذين كان عمي يطلق عليهم (الثوار) والذين كانوا
على عداوة شديدة مع عمي ، بسبب حربه لهم ، وتجريد الجيوش
لحربهم والقضاء عليهم ، لكنهم كانوا يلوذون بالجبال الوعرة ،
التي يعرفون طرقها جيداً ، ولذلك لم تفلح الجيوش في القضاء
عليهم ..

فلما توغلت أنا وابن عمي للصيد ، داخل الصحراء ، رأى ابن
عمي غزالاً ، فانطلق خلفه يطاردّه ، ومن سوء حظّه أن الغزال قاده
إلى معقل الصُوص والشائرين ، فلما عرفوا أنه ابن الملك أسروه
وقتلوه ، وتمكنت أنا من الفرار والنجاة بصعوبة ، لكنني لم أجرو



على العودة لمملكة عمي ، لأخبره بما حدث خوفاً من أن تقتله
الصدمة .. وبدلاً من ذلك عدت إلى مملكتي ، لأخبر أبي بما حدث ،
ليجرد جيشاً ويجعلني قائده ، حتى أثار لابن عمي من هؤلاء
الأوغاد ..

وتوقف الصعلوك الأول ، ثم قال فى حُزن :

- لم أكن أدري أن هناك مُصيبة أكبر فى انتظارى ، فعند وصولى
إلى باب مملكة أبى ، سارع إلى مجموعة من الحُرَّاس ، وكتفونى
بالحبال ، فتعجبت فى نفسى ، وقلتُ : ترى ماذا حدث ؟ ! هؤلاء
خدم أبى ، وأنا ابنُ الملك ، فلماذا يفعلون بى ذلك ؟ !

ولم أطق صبراً على ذلك ، فصحتُ فيهم : أيها الأوغادُ أنا ابنُ
الملك ، فلماذا تفعلون بى ذلك ؟ !

فلم يرد على الحُرَّاس ، وقادونى إلى قصر أبى ، فقابلنى أحدُ
خدم أبى المُخلصين وقال لى : إن أباك قد غدر به الزمان ، وخانه
الوزيرُ فقتله ، وهو الآن يجلسُ مُتربعا على العرش ملكاً للبلاد ..
فلما سمعتُ ذلك أظلمتُ فى وجهى الدنيا .. وقادنى الحُرَّاس إلى
الوزير الخائن ، وكانت بينى وبينه عداوة قديمة ..

وسببُ تلك العداوة ، أننى منذُ صغرى كنتُ مولعاً بالصيد
بالقوس ، وذات يومٍ كنتُ واقفاً فوق سطح القصر ، وبيدى القوسُ ،
فرايتُ طائراً ، فرميتُهِ بالقوس ، لكن السهم أخطأ الطائر ،
وأصاب عين الوزير ، فأتلفها ، وأنا لأقصدُ ذلك .. ولم يجرؤ
الوزير على معاقبتى يومها ، لأننى كنتُ ابنُ الملك ، لكنه أضمر



لى فى نفسه الشر ..

ولما حدث ما حدث ، ووقفت مقيداً أمام الوزير - الذى صار ملكاً -
نظر إلى باستهانة ، وقال لحراسه : اضربوا عنقه ..
وسكت الصعلوك الأول ، ثم قال متألماً :
- فلما رأيت الوزير الخائن أمر حراسه بقتلى ، قلت له مستنكراً :

بأى ذنب تأمر حراسك بقتلى ؟ ! ألم تكثف بقتل أبى ، وتشريد

أهلى ، والاستيلاء على العرش ؟ !

فأشار الوزير الخائن إلى عينه التالفة وقال :

- وأى ذنب أعظم من قلعك لعيني ؟ !

فقلت له :

- هذا خطأ وقع منى قضاء وقدرًا ، لقد كنت صغيرًا ، ولم

أتعمد فعل ذلك بك عمدًا ، ولا عن قصد منى ..

فغضب الوزير الخائن غضبًا شديدًا ، وقال لحراسه :

- قربوا ذلك الأحمق منى ، حتى أقتص منه بنفسى .. فدفعنى

الحراس إليه بقوة ، فمد الوزير الخائن أصبعه فى عيني بقوة حتى

فقاها ، فصرت من هذه اللحظة أعور بعيني الشمال ، كما ترون ..

تأثر الحاضرون بما سمعوا ، وأشفقوا على الصعلوك الأول ،

وقالت صاحبة البيت :

- هذا سبب فقد عينك ، فماذا عن حلق ذقنك ؟ !

فتنهذ الصعلوك الأول فى ضيق وقال :

- بعد أن فقا الوزير الخائن عيني ، أمر حراسه أن يضعونى فى

صندوق ، ثم قال للسيف : خذ هذا الشاب إلى خارج المدينة ،



وأشهر سيفك . ثم أقتله ومزقه قطعاً صغيرة ، وألق به للوحوش
حتى تأكله ، وأستريح من منظره ..

فحملني السياف ، وسار بي حتى خرج بي من المدينة ، وهناك
أخرجني من الصندوق - وأنا مقيد - ليقتلني كما أمره الوزير الخائن ..
وهنا صعبت على نفسي ، وتذكرت سابق عزي وذلي اليوم ،

فبكيت وتوسلت إليه أن يرحمني ويعفو عني ، وألا يقتلني ..
وأخذت أذكره بسابق مودتي له ، وإحساني إليه ، وأنه كان ذات
يوم من رجال أبي ، وظللت أستعطفه بشعر مؤثر ، حتى رق قلب
السياف لي ، وأشفق علي ، وقال لي في صوت تخنقه العبرات :
- ماذا أفعل يا ولدي ، وأنا عبد مأمور ؟ ! لو لم أنفذ أوامر ذلك
الوزير الطاغية ، أمر بقتلي .. إن لوالدك الراحل كثيرا من الفضل
على والإحسان إلي ، ولكن ماذا بيدي الآن ؟ !
فقلت له :

- تستطيع يا سيدي أن تطلق سراحى ، وأقسم لك إنك لن ترى
وجهي بعد الآن .. لن أدخل هذه المملكة مرة أخرى ، ولن يرانى
أحد ، حتى يخبر الوزير الخائن أنك أطلقت سراحى .. أطلق
سراحى وعد لتقول له إنك قتلتني ، وأطعمتني للوحوش ..
فلما سمع السياف هذا الكلام ، فك قيودى ، وأطلق سراحى
قائلاً :

- اهرب من هذا البلد ، لتفوز بعمرى ، حتى لاتهلك ،
وتهلكنى معك ..

فلما فعل السياف معى ذلك ، شكرته ، وانطلقت هاربا ، وأنا



لَأُصَدِّقُ أَنَّنِي نَجَوْتُ ..
 فَازْدَادَ تَأَثَّرُ صَاحِبَةِ الْبَيْتِ لَمَّا سَمِعَتْهُ وَقَالَتْ :
 - وَمَاذَا فَعَلْتَ بَعْدَ ذَلِكَ ؟
 فَقَالَ الصُّعْلُوكُ الْأَوَّلُ :

- سَافَرْتُ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى مَدِينَةِ عَمِّي حَتَّى أَحْكِيَ لَهُ مَا حَدَّثَ
لَأَبِي ، وَأَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يُجَهِّزَ جَيْشًا لِلشَّارِ مِنَ الْخَارِجِينَ عَلَى الْقَانُونِ ،
الَّذِينَ قَتَلُوا وَلَدَهُ ، وَجَيْشًا آخَرَ لِلشَّارِ مِنَ الْوُزِيرِ الْخَائِنِ عَلَى قَتْلِ
أَبِي ..

وَلَكِنْ بِمَجَرَّدِ دُخُولِي إِلَى مَمْلَكَةِ عَمِّي سَمِعْتُ دَقَّاتِ طَبُولٍ ،
وَأَصْوَاتِ أَبْوَاقٍ تَقْتَرِبُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، فَالْتَفْتُ وَرَائِي ، وَرَأَيْتُ
مُصِيبَةً أَكْبَرَ ..

رَأَيْتُ جَيْشًا جَرَّارًا يَقْتَحِمُ مَمْلَكَةَ عَمِّي ، وَكَانَ الْوَزِيرُ الْخَائِنُ
عَلَى رَأْسِ ذَلِكَ الْجَيْشِ الْجَرَّارِ ..

وَخِلَالِ وَقْتٍ قَصِيرٍ تَمَكَّنَ جَيْشُ الْوَزِيرِ الْخَائِنِ مِنْ مُدَاهِمَةِ
مَمْلَكَةِ عَمِّي ، وَالْإِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا ، فِي غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَدُونَ أَنْ
يَتِمَكَّنَ جَيْشُ عَمِّي مِنْ إِعْدَادِ الْعُدَّةِ لِمُلَاقَاتِهِمْ ..

وَتَمَكَّنَ الْوَزِيرُ الْخَائِنُ مِنْ قَتْلِ عَمِّي كَمَا قَتَلَ أَبِي مِنْ قَبْلُ ،
وَاسْتَوْلَى عَلَى مَمْلَكَتِهِ أَيْضًا ..

فَلَمَّا رَأَيْتُ جُنُودَ الْوَزِيرِ الْخَائِنِ يَمْلِكُونَ الْمَمْلَكَةَ ، وَيَجُوبُونَ
شَوَارِعَهَا ، خِفْتُ أَنْ يَرَانِي أَحَدٌ وَيَتَعَرَّفَنِي ، فَيَقُودَنِي إِلَى عَدُوِّي ،
لِيَقْتُلَنِي ..



وهكذا تراكمت على النوائب والأحزان ، وفكرت في حالي ،
فلم أجد سوى حل واحد ينقذني من الموت ، وهو خلق لحياتي ،
حتى أغير ملامح شكلي ، فلا يتعرفني أحد ..
وهكذا خلقت ذقتي ، وفررت من المدينة ، حتى وصلت إلى
مدينة بغداد ، وكل أمني أن أجد من يوصلني إلى قصر الخليفة

(هَارُونُ الرَّشِيدُ) حَتَّى أَقْصَّ عَلَيْهِ مَا جَرَى لِي وَلِعَائِلَتِي ، وَأَطْلُبُ
مِنْهُ أَنْ يُسَاعِدَنِي فِي الثَّأْرِ مِنْ ذَلِكَ الْوَزِيرِ الْخَائِنِ ..
فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَى هُنَا ، رَأَيْتُ أَحَدَ هَذَيْنِ الصُّعْلُوكَيْنِ ، وَقُلْتُ لَهُ :
أَنَا غَرِيبٌ عَنْ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ..

وَعَلِمْتُ أَنَّهُ هُوَ أَيْضًا غَرِيبٌ مِثْلِي ، وَبَيْنَمَا نَحْنُ وَاقِفَانِ جَاءَ ذَلِكَ
الصُّعْلُوكُ الثَّلَاثُ وَانْضَمَّ إِلَيْنَا ، وَمِنَ الْغَرِيبِ أَنَّنَا نَحْنُ الثَّلَاثَةُ غُورٌ
بِالْعَيْنِ الْيَسْرَى ، وَقَدْ حَلَقَ كُلُّ مَنَا لِحِيَّتَهُ ..

ثُمَّ طَرَقْنَا بَابَ بَيْتِكُمْ نَطْلُبُ طَعَامًا ..

فَقَالَتْ صَاحِبَةُ الْبَيْتِ :

- مَلَسْ عَلَى رَأْسِكَ ، وَانْصَرَفْ لِحَالِكَ ..

فَقَالَ الصُّعْلُوكُ الْأَوَّلُ :

- لَا أَنْصَرِفُ حَتَّى أَسْمَعَ قِصَصَ رِفَاقِي ..

وَهُنَا تَقَدَّمَ الصُّعْلُوكُ الثَّانِي ، لِيَحْكِيَ حِكَايَتَهُ ..

(يَتَبَعُ)